الهامش في الخطاب الروائي الجزائري المعاصر؛ رواية "سِفْر القُضاة" لأحمد زغب نموذجاً.

The margin in the contemporary Algerian novelist discourse; The novel sifr al-khodat "The Judges' Travel" by Ahmed Zeghab as an example

د.السعيد قبنّه[1]*

[1] جامعة الشهيد حمّه لخضر–الوادي (الجزائر)

guebennasaid@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022-04-11تاريخ القبول: 2022-12-21تاريخ النشر: 2022-12-27

ملخص:

اقتحمت رواية "سِفْر القُضاة" للكاتب أحمد زغب* بكلّ جرأة الهامش الاجتماعي لمجتمع الصحراء التقليدي باعتباره خطاباً ثقافيّا وفنيّا، فكشفت من خلاله عيوب الثقافة المجتمعيّة المتستّرة للمجتمعات غير المتجانسة ثقافيّاً كالتعصّب للقبيلة، والتناجز العرقي، وألفاظ اللامساس، ومعاقرة الرذيلة.

وتهدف هذه الدّراسة إلى الكشف عن ألاعيب الثقافة المتخفّية من وراء الجمالي من الخطاب، والأخذ بيد المتلقي لمعرفة حقيقة الصراع داخل هذا النوع من المجتمعات المغلقة، فما يعرف بالزمن الجميل عن المجتمع التقليدي ليس في الحقيقة إلا حيلة من حيل الثقافة.

كلمات مفتاحيّة: هامش/ خطاب/ مجتمع/ ثقافة/ طابوهات/ نسق.

Abstract:

The novel "The Judges' Travel" by Ahmed Zeghab boldly invaded the social margins of the traditional desert society as a cultural and artistic discourse, revealing through it the defects of the hidden

*كاتب وباحث وأكاديمي جزائري من مواليد بلدة (الرقيبة) إحدى واحات وادي سوف بالصحراء الشرقية الجزائرية سنة 1961، أستاذ الأدب الشعبي بجامعة الوادي، امتاز مساره العلمي والإبداعي بغزارة الإنتاج، ومن أعماله الروائية تحديدا: المقبرة البيضاء، ليلة هروب فجرة، سِفر القضاة، ثورة الملائكة. بالإضافة إلى عشرات الكتب والبحوث والدراسات وأعمال الجمع الميداني للموروثات الشعبية.

societal culture of culturally heterogeneous societies such as intolerance of the tribe, racial prejudice, touching words, and the abuse of vice.

This study aims to reveal the culture's tricks hidden behind the aesthetic of the discourse, and to take the hand of the recipient to know the reality of the conflict within this type of closed society, so what is known as the beautiful time about the traditional society is in fact nothing but a trick of the culture.

Keywords: margin / discourse / society / culture / taboos / layout.

1.مقدّمة: يُعدّ الهامش في الرواية العربيّة عموما والجزائرية خصوصا كالملح للطعام، فهناك روايات كثيرة لم تصل من النضج إلى ما وصلت إليه إلا بكثرة ما حوته بطونها من هوامش مختلفة كالأشعار الشعبية والحكم والأمثال والألغاز وحتى النكت الجنسية وسائر الفنون القولية التي يتداولها الشعب بحريّة في دورة الحياة، لذلك فإنّ كتّاب الهامش أكثر شهرة من غيرهم.

ولعلّ كتاب الرواية انتبهوا إلى أهميّة هذه الهوامش فنجد بعضهم قد تخلى عن الصرامة اللغوية في خطاباتهم السردية فأقحموا اللهجات الدارجة في بعض المقاطع السردية حتى ينقلوا الهامش في سياقاته، ومن هؤلاء الكتّاب ما نلمسه في كتابات نجيب محفوظ على سبيل المثال لا الحصر، وكذلك سار على النسق كتّاب الرواية العربية في الجزائر وعلى رأسهم الطاهر وطّار وواسيني الأعرج.

أمّا في الجنوب الجزائري فقد برزت عدّة أسماء روائية لافتة حاولت أن تعيد صياغة تأثيث الصحراء من خلال استهداف الهوامش في تفاصيل حياة المجتمع التقليدي، ومن بين هؤلاء الروائيين الصديق أحمد الذي قدّم في روايته (كامراد) طرحا جديدا عن دور الصحراء في معادلة البقاء وانتشلها من طي النسيان، ووضعها أمام المنظمات العالمية كإرث إنساني وواقع اجتماعي تحاول الدول تجاهله إنسانيّا، فإن كانت في نظر الساسة مجرّد "بقرة حلوب" بتعبير العامة، وهي النظرة التي يحملها الكثير عنها، فإنّ تلك القطعان البشرية المتسلّقة صحاري الجزائر في مشهد إنساني بغيض ستبقى وصمة عار في وجه الضمير العالمي وهي هوامش تصرخ في وجه الظالمين (القضاة) كما عبّر عنهم (زغب)في روايته (سِفر القضاة).

وأمّا رواية سِفر "القضاة" للكاتب أحمد زغب فقد جاءت حبلى بالهوامش التي تؤثث المجتمع التقليدي في الصحراء، بحيث تغلغلت في تفاصيل حياته اليومية كاشفة عيوب الثقافة التي تتستّر وراء الجمالي من

الخطاب، بحيث تكثر الطابوهات التي يزكّيها عامل الصراع بين الفئات الاجتماعية غير المتجانسة، بالإضافة إلى بعض الظواهر الاجتماعية مثل الازدواجية في الخطاب الديني عند الفئات المتستّرة بغطاء الدّين، وهي الظواهر المركونة في الهامش وتخشى الاقتراب من المركز.

2.مفهوم الهامش في اللغة والاصطلاح: جاء في القاموس المحيط أنّ" الهامش: الجمع..والهامش حاشية الكتاب، وتهامشوا: دخل بعضهم في بعض، وتحرّكوا" (الفيروزآبادي، 2008، صفحة 1708) ، وهذا يعني أنّ الهامش في اللغة هو الاجتماع والحركة، بينما معناه واضح في الكتاب باعتبار أنّ هوامش الكتاب هي حواشيه إذ لا علاقة لغوية تربط بين المعنيين: الحركة وحاشية الكتاب، وأما من الناحية الاصطلاحية فإنّ هويدا صالح ترى " أنّ الكتابة في الهامش قد تكون تنفيسا عن المتن بحكم ضغط المتن، وقد تكون تنفيسا من خلال الهامش، فقد تعبّر عما لا يستطيع المتن أن يعبّر عنه" (صالح، 2015، صفحة 40) ، لذلك فإنّ هذا التعريف يصبّ بصفة مباشرة في علاقة الهامش بالأدب ومنها جنس الرواية، إذ أنّ الرواية باعتبارها أدبا يتسم بطول النفس يستطيع أن يستوعب كل الأفكار والصراعات التي يعاني منها الإنسان في حياته، كما أنّه ليس بالضرورة أن تكون جميع هموم الإنسان ذات ارتباط بالمركز، فهناك أشياء كثيرة تندرج ضمن خانة المكبوتات، فتأتي الرواية للتعبير عنها، وتقديمها في حلّة فنيّة تداعب العقل والشعور معا، فقد كتب (هيكل) روايته (زينب) وقد اختار فيها أن يذهب إلى الريف المصري حيث المهمّشين من الفلاحين والطبقة الكادحة، لعلّه يلفت إليها أنظار سلطة المركز.

3.الهامش النسقي ومعيار الجماهيري: رغم أنّ الغذّامي يشترط في دراسة الأنساق الثقافية معيار جماهيرية الأثر الأدبي، إلا أنّ هذا الشرط يعدّ شرطا تعسفيّا في نظرنا، ذلك أنّ ما قام به الغذّامي في هذا المجال إنما هو محض اجتهاد، ولا سيما أنه من الصعب وضع تعريف دقيق للثقافة التي هي محور هذا النقد، لذلك فإنّ جماهيرية النص المنقود تبقى مجرّد رأي،ولعلنا نرجع هذا فيما نراه للأسباب التالية:

أ-أنّ الأدب برمّته إنّما هو موقف إنساني في المقام الأوّل،لأنّه في مضمونه يعبّر عن حالة إنسانيّة محضة قد يتفاوت مستواها الفنّي من كاتب إلى آخر، والأديب لا يمكن أن يكتب من فراغ، إنّما يعبّر عن قلق المجتمع ومعاناته حتى وإن قصّر في التعبير عن هذه المعاناة، فكم من أثر أدبيّ ظلّ منسياً ومهملا في الهامش ثمّ كتبت له بعد ذلك الشهرة ونال من الحظوة لدى الجماهير ما نال وقد يكون هذا الأديب مغمورا، وعلى

سبيل التمثيل رواية (ذهب مع الرّيح)للكاتبة الأمريكية (مرغريت متشيل)**Margaret Mitchell***مع أنّها الرواية الوحيدة التي كتبتها في حياتها. (مرغريت متشيل، 2019)

ب-أنّ الأعمال والمدوّنات التي أجرى عليها الغذّامي تطبيقاته كان الهدف منها في الأساس هو البحث عن مقاربة واقعية لمشروعه حول النقد الثقافي، وذلك باعتبار أنّ تلك الظواهر النسقية التي خلّدها تاريخ الأدب العربي بكلّ ما تحمله من رموز تراثية، وقيم أدبيّة ظلت عالقة ومترسّخة في الذاكرة الجماعيّة العربيّة، وليس هذا بسبب الجمالية فقط،بل لأنّها ارتبطت بالعيوب النسقية التي ظلّت مختبئة تحت الخطاب رغم مرور السنين، لذلك فالغذامي من هذا المنطلق سعى عبر آليات المجاز التراثية إلى الكشف عنها حتى تخدم مشروعه.

ج-أنّ شرط جماهيرية العمل الأدبي-في تقديرينا-قد يغدو لا معنى له إذا علمنا أنّ الأثر الأدبي يخضع غالبا إلى السياقات الخاصة التي ترتبط عادة بالأحداث التاريخية العامة للأمّة فنسقيّة المتنبي مثلا ارتبطت بنشأة الدولة الحمدانية وصانع انتصاراتها أميرها الشاب سيف الدّولة الحمداني ولولا هذا السياق التاريخي لما كان للمتنبي أثرٌ في تاريخ الأدب (أحمد أمين، 2012، صفحة 81) .

د-يستبعد الغذّامي في الجماهيري "الرديء والنخبوي عبر شرطي الجمالي والجماهيري " (الغذامي، 2004، صفحة 77) بمعنى أنّه باستبعاد الرديء والنخبوي يحيلنا إلى كل ما هو في الهامش وأما الجمالية والجماهيرية فهي من الشروط التي تكتسب بمرور الوقت، ويضيف الغذّامي أنّه يستهدف من وراء هذه المهمّة "كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية، وأهمّ هذه الحيل هي الحيل الجماليّة التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدّها تحكّما فينا" (الغذامي، 2004، صفحة 77) ، وهذا لا ينفي أبدا ما ذهبنا حين مثلنا بالكاتبة الأمريكية (مرغريت متشيل)، كما أنّ دراسة النسق في حدّ ذاته تتطلب من الناقد أن يتسلّح بالمرجعيّة المعرفيّة التي تمكنّه من الفرز النسقي وتشخيص الظواهر النسقية في مضمرات الخطاب، ثمّ تأتي بعد ذلك عملية البحث عما ينقضه وينفيه في العلن (الغذامي، 2004، صفحة 244) .

هـ-الطابع البرغماتي للنسق يجعله—حسب رأينا- قديفقد شرطه الجماهيري حينما يتحوّل إلى أداة طيّعة في يد النخبة ومنهم شاعر السلطة، ناهيك عن المؤرخ الذي يستحيل في يده إلى وثيقة تاريخية قد تستغلّها

هذه السلطة في احتكار الخطاب الوطني والقومي ومنه استغلال اندفاع الجماهير لاستهلاك المنتوج الثقافي، وهو ما يؤكّد برغماتية هذا النسق (الغذامي، 2004، صفحة 79) .

4.الصّحراء ذلك الهامش الأنطولوجي:

إنّ مفهوم الصحراء في المخيال الشعبي يضعنا بين خيارين، الأول خيار نصّي يتعلّق بالفضاء المكاني الأنطولوجي الذي يحيل على القفر والفراغ والمعاناة؛ وهو ما نجده في محدودية فرص العيش المتاحة لدى عائلة بطل القصة "الطالب لخضر"، لأنّ النسق الثقافي المضمر المحرّك الذي يتطلّع إلى التغيير سببه الفضاء المكاني، فسيدي عمران القرية الفقيرة الواقعة على أطراف الصحراء الشرقيّة إنّما هي صحراء وسط صحراء، وماوراءها أيضا صحراء؛ في حين أنّ تونس يصوّرها المخيال الشعبي بداية الحياة الحقيقية لأهل الصحراء ولا يستطيع الفرد الصحراوي أن يفهمها إلّا مع الأسطورة، ولذلك فإنّ مغادرة الصحراء هي تفسير لنسق الرّفض المضمر، ويشارك البطل في تجسيده أهله وأصحابه ومعلّمه والمؤسسة الدينية برمّتها، في المقابل يكون النسق المأمول محلّ إجماع وولاء للخروج من جدليّة المكان المقفر في صورة الصحراء.

وأمّا الخيار الثاني فهو ثقافي بحت يتعلّق أساسا بمفهوم الهويّة الثقافيّة لمجتمع الصحراء في مقابل التصحّر الايكولوجي، فيكرّس مجموع القيم الثقافيّة التي تميّز أهل الصحراء عن غيرهم من البشر، لا سيما في تعاطيهم مع مواضيع المقدّس والمدنّس اللذين يشكلان معادلة البقاء الثقافيّة فيها، ذلك أنّ الحياة في الصحراء لها ما يبررها أنطولوجيا على الأقل، فهي النخلة بكل مرموزاتها وهي نسيج العصبية بكل مكوّناته، وهي الأعراف التي تختزن داخلها الخبرات الشعبية على مرّ السنين، فكلّ هذه العناصر تشكّل ثقافة ذات خصوصيّة تأبى الذوبان، وتقاوم من أجل البقاء وهذا التباين الثقافي يكشفه التقابل الثقافي عادة بين انتمائين مختلفين: صحراوي /حضري.

وهذا الخيار الذي نتحدّث عنه هو –أيضا– لا يمكن أن يسلم من نسقي الولاء والرفض، فالثقافة الصحراوية تدين بالولاء للمنشأ الأصل في شكل دفاع أهلها عن القيم ونجد ذلك في صورة المحافظة على المكوّن الصّحرواي الذي يعتبر النخلة قيمة حضارية مركزية والعناية بها نسق ثقافي يتوارثه الأبناء عن الآباء والأجداد، ولا حظنا كيف انسلخ (الطالب لخضر) عن النخلة في بداية رحلة البحث عن ذاته ليعود في الأخير إلى النخلة وهو مظهر من مظاهر الولاء وفي المقابل يرفض (الحاج البيكو) ثقافة الآخر المختلف ويأبى التنكّر لمبادئه وهي في نسق مضمر وقد تجلى هذا الرفض في عدم مواصلة العيش في تونس رغم الإغراءات ورغم دموع حنّا. وامتدّ الرفض حتّى في (حادثة الطابية) بحيث تحرّكت في نفسه نخوة العصبيّة

(الرغبة في الثأر) وهو نسق مضمر، لذلك بادر إلى الانتقام لوالده من (الحشاشنة)، وآخر محطة للرفض في حياته حين فشلت محاولات الجماعات المتمرّدة في استمالته ثقافيّا إلى مشروعها المشبوه، رغم ما توفّر لديه من آليات ثقافيّة تمنحه فرصة الوصول إلى الزعامة على هذه الجماعة وإحداث تغيير ثقافي في العلاقة بين المثقف مع السلطة، لأنّ (الحاج البيكو) يملك ذكريات سيئة مع القضاة الذين يراهم نسخا متكررة، فهم نفسهم القضاة الذين وظفوا الدين في اغتيال (حنّا) وهم نفسهم القضاة الذين اغتالوا حلمه في تونس، وهم أنفسهم القضاة الذين اضطهدوا الشعب الجزائري واغتالوا الشرفاء من أبناء بلده.

5.الطابوهات: تكثر الطابوهات(https://arz.wikipedia.org/wiki, 2020) في المجتمع التقليدي نتيجة الخصوصية الثقافيّة لهذا النوع من المجتمعات، وقد وردت بعض الطابوهات في مشاهد معزولة من الرواية، ونجد أنفسنا مجبرين فنيّا على تناولها لكونها جزءاً من خطاب الهامش في هذه الرواية، وقد نلوم الكاتب، وقد نعذره في نفس الوقت نلومه لأنّنا نحن من يصنع هذه الهوامش في حياتنا وما يختزن فيه من عيوب نسقية لا حصر لها وقد لا نلومه حين ندرك أنّ الفنّ كالدواء المرّ قد تكون مرارته سببا في شفائنا من العلّة، رغم أنّ الضوابط الأخلاقية تمنعنا من مصارحة أنفسنا.

ومن هذه الطابوهات التي تصفعنا بها رواية "سفر القضاة" تلك المشاهد الجنسية الإيحائية التي وردت في بعض ثناياها والتي لم تخل من دلالات رمزية، ولعلّ أوّل الطابوهات التي اخترقها (الطالب لخضر الزيتوني) دخوله في علاقة محرّمة مع(حنّا بنت عيراد) اليهودية نزيلة (نهج الظلام) وهي التي اضطرتها ظروفها القاسية إلى ممارسة مهنة البغاء، وبدل أن يعلن رفضه النسقي لهذا الطابو راح يعلن استسلامه ويقاسمها فراشها الوثير في ليالي الشتاء الباردة الممطرة، وهو الشيء الذي افتقده في غرفته المتهالكة فوق السطح :"..**كلّ ذلك والهزّي لخضر، أو الطالب لخضر، يسترسل في تداعياته بصوت مبحوح من أثر النعاس وهو يداعب شعر حنّا الطويل الناعم و يضع خدّه على صدرها الهشّ يستنشق عبق عطرها النفّاذ، والجسدان يلتصقان على لزوجة دافئة ودفء لزج..**" (زغب، 2017، صفحة 28)

ولا يمكن أن نعتبر هذا التصرّف من (الطالب لخضر) غريبا وهو الذي لم يفتح عينيه على امرأة جميلة بهذا الدّلال أبدا، ولا مجال لذكر المفارقة لكونه طالباً زيتونياً، لأنّ هذا النوع من الهوامش يصبح معادلا موضوعيا للمتن باعتبار أنّ الثقافة هي التي تصنعه في هذه المدينة الضائعة إذ لا توجد حدود بين الفضيلة والرذيلة، فالكلّ عرضة لهذا الشيء متى سنحت الفرصة.

وأمّا الفتاة (حنّا) فليست بحاجة لكي تبرّر ثقافة الخيانة في هذا المجتمع قبل استقرارها بهذا النهج ضاربة لها مثالا نسقيا عندما أعلنت إسلامها على يد أحد الأئمة المعروفين بالحي، وطلبت منه أن يجد لها عملاً شريفاً وزوجاً صالحاً يختاره لها، فكان ردّه لا يختلف عن ردّ (القضاة) الذين غدروا بأبيها (عيراد):"..**فقد جاءني هذا الإمام يتودّد إليّ يطلب مساعدتي في عمل معيّن ..لم يحدّده لكن لمح تلميحا فيه خبث ومكر، فلما سألته عن نوعيّة هذه المساعدة، طلب منّي أن أذهب إلى مكان يحدّده، ثمّ يلتحق بي بعد ذلك، ثمّ علمت بعد ذلك بأنّه مسكن يخرج منه سكّانه أيام الصيف ويودعون مفتاحه لدى هذا الرجل الثقة**.." (زغب، سِفر القُضاة(رواية)، 2017، صفحة 165) .

وهكذا فإنّ الطابوهات تتحوّل إلى أنساق لمجرّد خروجها من سياقاتها الحقيقية، وتصبح ثقافة يقرأها الجميع في هذه المدينة ويشعر الكلّ أنّ الاستثناءات في هذه المدينة لم يعدّ لها معنى فالكلّ يحبّ أن يكون(قاضيا) مثل هذا الإمام تماشيا مع الثقافة التي ينتجها هذا المجتمع الذي لا يجد حرجاً في اختراق الطابوهات، إذ أنّ مركزه الاجتماعي كإمام يؤمّ الناس في صلواتهم يمنعه أن تمتدّ يده إلى أعراض الناس لا سيما وهم في حالة الضعف الشديد، إلا أنّه يتحوّل إلى ضحيّة هذه الثقافة التي يتعاطاها مجتمعه، لذلك فإنّ ثقافة (الطالب لخضر)التي جاء بها من عمق الصحراء سرعان ما تلاشت أمام فوضى الأنساق في هذه المدينة.

وتستمرّ جدلية الطابوهات في الرواية وهذه المرّة تنقل (الطالب لخضر) إلى مدينة تقرت بصحراء الجزائر الشرقيّة عاصمة وادي ريغ، فيصير (لخضر البيكو) بعد أن تجرّد من لقب (الطُّلْبة) *، بحيث تلقي به الأقدار في أحضان الرومية الشقراء (مدام سيمون) صاحبة البار الوحيد في الجهة، فيختلفُ إلى بيتها حيث ينتظره فصل آخر من فصول الرذيلة وبعد أن أقنعته بضرورة الاستحمام في حمامها الذي أعدّته له خصيصا لتنال من شرفه:

" ..**تنزل إلى البطن ويتزايد لهاثها وأنفاسها تتسارع وتتصاعد وتتصاعد ثمّ جثت على ركبتيها بعد أن أزاحت رداءها القطني تبيّن له أنّها لم تكن ترتدي شيئا غيره بدا له جسدها عاريا كالبلّور** ..." (زغب، سِفر القُضاة(رواية)، 2017، صفحة 59) ، ولذلك فإنّ بقايا الثقافة المحافظة التي يحمل جيناتها

* مفردها طالب،والثقافة الشعبية الجزائرية تسمّي كلّ من يحفظ القرآن طالباً ولو كان فقيها عالما بالكتاب والسنة من باب التواضع، فهو في كلّ الحالات طالب علمٍ.وقد يستعملُ هذا [اللقب] نسقيّا –أيضا– في مقام التعريض والسخرية بمن لا حظّ له من العلم لِعَيَه أو التماساً للبركة فيه كالمحاذيب والدّراويش.

"البيكو" لا تصمد كثيرا أمام الطابوهات الثقافيّة التي تمثّلها (مادام سيمون) في نسقها المسيحي الاستعماري الذي يتّخذ من [الشبقيّة] أحد وسائل الهيمنة الثقافية التي يستعملها المحتلّ، نقول هذا ونحن نشعر بأنّ تصوّر الكاتب عن هذا الحدث لا يخلو من عفويّة الاندفاع السردي أو تسريد الحدث، في محاولة الغاية منها دعم شخصية (البيكو) المتناقضة.

وأمّا في حادثة (الطابية) وتعرّض والد البيكو للإهانة من قبل جيرانه في الغابة من الحشاشنة، فإنّ (الطابو) يمتدّ إلى فضح ثقافة التلاسن في المجتمع التقليدي وما تخفيه من عيوب نسقية تظلّ مختبئة تحت العرف والعادات والتقاليد، ويمثّل هذا المشهد في الرواية(عمار ولد عبد القادر لخوص)، ويبدو من خلال تحامله على الذين اعتدوا على (لمين السوفي) [أنّه ليس من الحَشَاشْنَة] والذي كان يصرخ بأعلى صوته أمام البيكو:

"..ضربوه أولاد لقْحَاب ومن يومها وهو مريض لم يخرج من البيت، لم أره، لكنّ الجيلاني صهركم يقول أنّ فمه وأنفه متورّمان، ولا يستطيع أن يمشي إلى الجامع، ومن ذلك اليوم لم يذهب إلى الغابة..." (زغب، سِفر القُضاة(رواية)، 2017، صفحة 70) .

فكلمة "لقْحاب" (الفيروزآبادي، 2008، صفحة 1289) التي تحيلنا تراثيا على المرأة البغيّة أيام الجاهلية التي تتكلّف السعال لتؤذِن طلّابها بسعالها، وهي من ألفاظ اللامساس (زيد، الدليل النظري في علم الدلالة، 2007، صفحة 110) في الثقافة الشعبية والرسمية معا، غير أنّ المجتمع التقليدي يحوّلها إلى نسق مضمر يحيل إلى كلّ ما ينبذه المجتمع لسيرته السيئة بين الناس إمعانا في احتقاره، ولكلّ من يرتزق ببيع شرفه، وهي كلمة تندرج ضمن خانة [الطابوهات المكتوبة] التي وجدت ضالتها مع دعاوى الحداثة إلى تحرير الأدب من القيود الأخلاقية ومخاطبة الجمهور بلغة واقعه، لذلك نجد كثيرا من هذه الألفاظ في بطون الروايات العربية الحديثة والمترجمة بدعوى واقعية الأدب.

وقبل أن يختفي هذا (الطابو) يعود عمار ولد عبد القادر لخوص إلى نفس الجملة الثقافية، وبأكثر حدّة هذه المرّة وفي معرض النصيحة وهو يخاطب (البيكو) بعد أن أخذ منه ميثاقا بمعاقبة المعتدين:

"–يعطيك الصحّة ! أرني ماذا تفعل بهم أولاد القُحُب ...أثبت أنّك رجل ...سوف أنتظر الخبر...كالخبر من العريس ليلة الدخلة...عليك بهم..." (زغب، سِفر القُضاة(رواية)، 2017، صفحة 71) ، ويبدو أنّ (الطابو) هنا قد انزلق بنا إلى(طابو) آخر أكثر تعقيدا، وهو ظاهرة (التخْبِير) في المجتمع التقليدي أو لحظة اختبار الشرف، ويتعلّق الأمر بالاطمئنان على(بكارة الزوجة) ليلة الدخلة، وهو

نسق متجذّر في ثقافة المجتمع التقليدي جعله معادلا موضوعيا حقيقيا للزواج بأكمله،وهو في نظر المجتمع التقليدي أهمّ طقوس العبور إلى الحياة الزوجية، إذ أنّه "إلى عهد قريب كانت المجتمعات الشعبية، بل لا تزال إلى أيامنا هذه، تعطي أهميّة بالغة لعذريّة الفتاة، وتعتبرها دليل عفّةٍ فكان ينتظر من العريس في الليلة الأولى تقديم دليل على فحولته وعذريّة العروس" (زغب، الفلكلور المنهج النظرية التطبيق، 2015، صفحة 150) فتلك اللحظات –إذن– من أكثر المتعاليات الاجتماعية حساسيّة نظرا للآثار الجانبية النفسية والعاطفية المدمّرة على العائلتين المتصاهرتين، وهذه المسألة تعدُّ من المسكوت عنه في المجتمع التقليدي لذلك عدّت من الطابوهات التي تحوّلت إلى أنساق مضمرة، فيُعَبّرُ عنها بين أفراده بالكناية والتورية فيقال:(العريس خبّر، العريس هَنّى، العِرْسانَ بخيرٍ، كيف صباحْ العرسان؟) كما يتدخّل الفلكلور في أحايين كثيرة للتعبير عن هذا الجوّ الاحتفالي البهيج بالزغاريد والغناء وإطلاق البارود كإعلان رسمي لنجاح المهمّة..!!

فالرجولة في المجتمع التقليدي ترتبط عادة بموضوع الشرف لا سيما في المجتمعات الشرقية،لذلك قال عمّار للبيكو(أَثبتْ أنّك رجل) مردفا تقريعه بالجملة الثقافية (كالعريس ليلة الدخلة)، وهذا العصف المركّز يُعدّ كافيا لاستثارة الرجل في المجتمع البدوي ليضع (نسق الثأر) نصب عينيه، وقديما عبّر المتنبي قديما من الكامل عن هذا المعنى قائلا:

لا يَسلَمُ الشّرف الرّفيعُ مِنَ الأذَى حتى يُراقَ على جوانبِهِ الدَّمُ (المتني، د.ت، صفحة 366)

6.ملخص الرواية:

أحداث هذه الرّواية حسب سياق النص تأخذنا إلى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانيةومسرحها قرية صغيرة تقع على أطراف وادي ريغ بالجنوب الشرقي من الجزائر وتسمى سيدي عمران (سيدي عمران، 2020) وهي منطقة معروفة بزراعة النخيل، ويبدأ المشهد الدرامي بالحدث السعيد فقد حفظ بطل القصة (**الطالب لخضر**) ابن **لمين السوفي** القرآن الكريم كاملا وأتم معه حفظ المتون أيضا، ورشحه معلّمه (الطالب الصادق) لإكمال تعليمه بجامع الزيتونة بتونس كشأن الطلبة النجباء في ذلك الزمن، ويتزامن هذا الحدث مع قدوم شيخ الزاوية القادرية بوادي سوف **الشيخ الهاشمي** (الجيلالي، 2008، صفحة 96) إلى هذه القرية وأصرّ والده **لمين السوفي** على اقتباس البركة من هذا الشيخ الربّاني.

مقدم الزاوية (الفوتي، 1964، صفحة 45) **سي قويدر** أسرّ لوالد **لمين السوفي** أنْ لا خوف على ابنه في سفره إلى تونس، فطريقه مفروش بـ(المقاديم)!! الذين يتمنون قدوم هذا المريد الصغير، غير أن الطالب لخضر لم يجد من هذه الوعود إلا السراب والعذاب حتّى أنّه فكّر في العودة من حيث أتى من شدة ما قاساه لولا إشفاقه على حال أهله،وما سيقوله عنه أبناء قريته وعن هذه الرحلة الأسطورية وهم ينتظرون عودة **الطالب لخضر** عالما مفتيا أو قاضيا مشهورا.

وصدفة وهو يبحث عن مأوى في مسارب الزيتونة تعرّف على الفتاة المومس* **(حنا بنت عيراد)** اليهودية الساحرة التي كانت تقيم بنهج الظلام فآوته وأسكنته بجوارها، وتوطّدت العلاقة بينهما، وانغمس معها في حياة الرذيلة، وصار يعيش مفارقة بين حياته كطالب زيتوني و(هزّيٍّ) حامٍ لعاهرة كما عبّر عنها الكاتب.

استمع الطالب **لخضر** إلى قصّة **(حنّا بنت عيراد)** وسبب اختيارها لمهنة البغاء،ولكي يبقى حيّا اشتغل بائعا للسجائر في نهج الظلام، ثم توسعت تجارته إلى بيع أشياء أخرى كملابس النساء الداخلية، وموازاة مع هذه العلاقة كان يرتاد الدروس الزيتونيّة على مضض.

بعد ثلاث سنوات عاد **الطالب لخضر** إلى قريته سيدي عمران خالي الوفاض إلّا من ذكريات حنّا المسكينة،عاد وهو يحمل بين جوانحه بذور ثورة ضد ما سمّاه بالخرافة والدجل واستطاع أن يؤثّر في شباب قريته، فتحركت الزاوية ضده، فطرده أبوه وتبرأ منه أمام الملأ، فانتقل إلى مدينة "تقرت" نادلا هزّيا من جديد! ولكن هذه المرة عند **(مادام سيمون)** الرّومية الشقراء أرملة أحد الجنود الفرنسيين حارسا في خمّارتها مستغلّة فحولته المهدورة في قضاء نزواتها المكبوتة.

وقعت أحداث كثيرة منذ مغادرته لقريته، فقد تعرّض أبوه **(لمين السوفي)**للإهانة على يد جيرانه في الغابة من **الحشاشنة** (الحشاشنة، 2020) فأسرع لتأديبهم، ولما قسا الدهر على أبيه الشيخ كان يسعفه خفية ببعض المال،يقبلُه الأب على مضضٍ رغم اعتقاده أنه من رزق حرام.

*المرأة الزانية، جاء في القاموس المحيط "..والمومسة : الفاجرة، والجمع: المومسات والمواميس"، يُنظر: الفيروزآبـــادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص:1782.

بعد الاستقلال هاجر **لخضر البيكو**** إلى فرنسا بحيث اشتغل هناك رفقة صديق طفولته (**سالوم**) هذا الأخير الذي كان يحمل له حقدا دفينا بسبب المكانة الاجتماعية والمادية **للبيكو** في قريته سيدي عمران، وكثيرا ما كان يعرّض **بالبيكو** الذي لم يشارك في الثورة مثله وهو يروي لأهل القرية بطولاته **الوهمية**.غير أنّ الإرهاب الأعمى لم يمهل **سالوم** الذي أغتيل في ظروف غامضة أيّام العشرية السوداء التي مرّت بها الجزائر.

7.خاتمة:

**لفظة استعملها الفرنسيون لشتم الجزائريين وتعني:(حقير)، وقد وردتهذه اللفظة في بعض كتابات الروائيين الجزائريين مثل كتابات مولود فرعون وكاتب ياسين، ونُرجّح أن الكاتب قد أقحمها نسقيّا في رواية سفر القضاة.

قدّمت هذه الورقة وقفات ثقافية في خطاب الهامش من المنجز الروائي الجزائري وكان النموذج المختار هو من رواية"سِفر القضاة" للكاتب أحمد زغب، وقد خلصت إلى النتائج الآتية:

-المعنى الأقرب لمفهوم الهامش بين الاستعمالين اللغوي والاصطلاحي هو جدل المركز(المتن) والهامش(الحاشية أو الطرف)، عدا ذلك فإن المعنى الاصطلاحي أكثر رمزية واتساعا من المعنى اللغوي الذي يرتبط رأسا ودون تأويل بهامش الكتاب أو الورقة.

-تعيش الهوامش بعيدا عن المركز ولا تستفيد من رعاية السلط، فبطل الرواية خاض تجارب التهميش في حياته، فقد تخلّت عنه الزاوية التي تمثل المركز باعتبارها المؤسسة الدينية فتلك البيئة المغلقة(القرية) مما صنع لديه المفارقة بين طالب علم زيتوني ومعاقر للرذيلة.

-ينزلق الخطاب السردي في رواية سفر القضاة إلى الاستطراد في الهوامش على حدّ تعبير الجاحظ، فقد فشل الطالب لخضر في أوّل امتحان إخلاقي حين تعرّض أبوه للضرب من قبل جيرانه، فنابت الهوامش عنه في ردّ المعتدين من خلال تلك الجمل الثقافيّة المرذولة القابعة في الهامش، والتي عدت من الطابوهات وتندرج ضمن ألفاظ اللامساس في مجتمع تقليدي محافظ.

-فتحت الهوامش نوافذ تبئيرية-إن جاز الوصف-لبعض العادات والتقاليد المسكوت عنها في المجتمع التقليدي مثل ظاهرة اختبار الشرف ليلة البناء الأولى..

8.قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو الطيب المتنبي.(د.ت.ط)، شيخ شعراء العربية، (تح.عبد المنعم خفاجي)مكتبة مصر.
2. أبو بكر زيد الفوتي.(1964)، مفتاح السعادة الأبدية في مطالب الأحمدية، التجاني المحمّدي، تونس.
3. أحمد أمين(2012).فيض الخاطر، مؤسسة هنداوي للثقافة والتعليم، القاهرة.
4. أحمد زغب.(2017)، سفر القضاة(رواية)، دار الكتاب العربي، الجزائر.
5. أحمد زغب.(2015)، الفلكلور المنهج النظرية التطبيق، دار هومة، الجزائر.
6. حسان الجيلاني.(2008)، ملحمة الشيخ الهاشمي الشريف، دار هومة، الجزائر
7. عبد الله الغذامي.(2004)، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
8. الفيروزآبادي.(2008)، دار الحديث (تح.أنس الشامي وزكريا جابر أحمد)، القاهرة.
9. نواري سعودي أبو زيد.(2007)، الدليل النظري في علم الدّلالة، دار الهدى، عين إمليلة.
10. هويدا صالح.(2015)، الهامش الاجتماعي في الأدب، قراءة سوسيوثقافية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.

مواقع إلكترونية:

-تابو: https://arz.wikipedia.org/wiki

-سيدي عمران: https://ar.wikipedia.org/wiki

-الحشاشنة: https://ar.wikipedia.org/wiki

- مارغريت ميتشيل : https://en.wikipedia.org

9.ملاحق:

الغلاف الأمامي لرواية سفر القضاة للكاتب أحمد زغب

أحمد زغب
سِفْر القُضاة
ספר שופטים
رواية
دار الكتاب العربي